مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 377 - 394

تاريخ الإرسال: 2022/10/29 تاريخ القبول: 2023/04/04
تاريخ النشر: 2023/06/03

فلسفة تأويل المقدس في النص الشعري الصوفي
philosophy of sacredinter pretation of the mystical poetic text

بن دعموش خليل
جامعة سطيف 2 (الجزائر)k.bendaamouche@univ-setif2.dz

الملخص:

تروم مقالتنا طرح مقاربة نقدية لفلسفة تأويل المقدس في النص الشعري الصوفي من خلال إعادة تفسيره لغويا، وفهم فلسفة تجلي الجميل الشعري عندهم.وقد توصلنا إلى أن: النص الشعري الصوفي فيض عن رؤية وجودية وفلسفية للكون أكثر مما هو رغبة بإبداع شعرية جديدة، وأن الشاعر الصوفي لا يقصد إلى إحداث قطيعة رؤيوية مع العقل الشعري العربي في طريقة تعبيره عن الواقع الحسي، إلا أنه يتخذ من عالم الخيال النابع عن الوجدان منطلقا له.

وبينا كيف وقع نقاد النصوص الشعرية الصوفية في إشكالية تفسيره، وفهم نصوص المتصوفة الغنوصيين هل يتبعون طريقة التفسير بالمأثور الديني؟ أم يتبعون التفسير بالرأي الفلسفي؟ ذلك لأن لغتهم الشعرية تعمل دائما على محو المحسوس، وإتلاف صورته، وإنشاء صورة مغايرة للجميل المقدس.

كلمات مفتاحية: الجميل، العرفان ، التجلي، المقاصد.

Abstract

Our article aims to present a critical approach to the philosophy of interpretation of the sacred in the mystical poetic

text by reinterpreting it linguistically, and understanding the philosophy of the manifestation of poetic beauty among them.
The mystical poetic text is more an existential and philosophical vision of the universe than a desire to create a new poetic
the Sufi poet does not intend to make a visionary break with the Arab poetic mind in the way it expresses the sensory reality ,
Critics of Sufi poetic texts fell into the problem of its interpretation, and understanding the texts of the Gnostic mystics, do they follow the method of interpretation according to the religious tradition? Or do they follow the interpretation of the philosophical opinion ?
their poetic language always works to erase the sensible, destroy its image, and create an image that is different from the sacred beauty.
Keywords: beautiful, Mysticism, Manifestation, Purposes,

المقدمة

اللغة المتعالية غاية الشاعر الفيلسوف في كل زمان ومكان، بسبب هذه الرؤية، شكلت سبل معرفة مفاتيح النصوص الأدبية الصوفية، وطرق تأويل جمالياتها موضوعا إشكاليا متجددا لا يزال يستأثر بالاهتمام النقدي والفلسفي في إطار ما يعرف بنظرية المعرفة، حيث اجتهد الكثير من النقاد وفق مناهج متعددة، وآليات عقلية تجريبية تزعم امتلاك الحقيقة، إلى محاولة فهم أطروحات نصوصها الفكرية، والجمالية، و قد كان من بينهم من سلك في طريقة تحليله منهج التأويل اللغوي؛ لأن "اللغة ليست نسقا اعتباطيا، إنها موضوعة في العالم، وهي تشكل جزءا منه؛ لأنه، في آن واحد، الأشياء نفسها تخفي لغزها وتظهره كلغة؛ ولأن الكلمات تقدم نفسها للناس كأشياء يتوجب فك رموزه"[1]

حديثنا عن فلسفة تأويل المقدس عند الشعراء الصوفية، ومقاربة لغتهم الصوفيةبوصفها الفضاء الذي يفرز جمالية الصورة، هو حديث عن حقيقة تساؤلات كينونة الإنسان ذاتها، وهذا ما ذهب إليه ابن عربي بقوله: "أن الحقيقة الكونية على ثلاث مراتب: "علوية، وهي المعقولات، وهي مرتبة للمعاني المجردة عن المواد التي من شأنها أن تدرك بالعقول، وسفلية، وهي المحسوسات، من شأنها أن تدرك بالحواس، وبرزخيه، ومن شأنها أن تدرك بالعقل والحواس، وهي المتخيَّلات، وهي تشكل المعاني في الصور المحسوسة وما تصوره القوة المصورة الخادمة للعقل وأجرى الله تعالى المعاني في المخاطبات مجرى المحسوسات في الصور التي تقبل التجزيء، والانقسام، والقلة، والكثرة، وجعل محل ذلك حضرة الخيال"[2]، على هكذا قاعدة تتقاطع فلسفة الصوفية مع فلسفة أفلوطين في توصيف الجمال حين يقول: "إن الجمال هو الخير، ومن الخير يستمد العقل جماله، ومن العقل تستمد النفس جمالها، أما أنواع الجمال الأخرى مثل الأعمال والنوايا، فجمالها أيضا مستمد من النفس؛ إذ إن النفس إلهية وهى تحوى كل ما تمسه وتسيطر عليه جميلا في حدود قدرته على تقبل الجمال. ويقول: تصير النفس جميلة بقدر ما تشبه بالله"[3]

1-1مشكلة الدراسة

طريقة شرح بعض النقاد للغة الشعرية عند الصوفية لا تعكس بالضرورة خصوصية فلسفة وجودهم، فهي لا تبرز جل مدركاتهم، ولا تتحدد بها طبيعة المعرفة الحدسية مع جوهر عالم الأشياء، ولهذا السبب وقع اختيارنا على المدخل اللغوي لمحاولة مقاربة الفهم النقدي والفلسفي للنصوص الشعرية الصوفية؛ وعليه سنحاول الاجابة عن اشكالات التالية التي تتيح للمتلقي ولوج متاهات المعنى الصوفي، وتحقيق الفهم بيسر، والتي تتعلق ب: ما مقاصد الشعر الصوفي؟ وما علاقته

بالدين؟ وبالفلسفة؟ وعلم الكلام؟ وبالجميل؟ كيف تشكل التحليل اللغوي مفتاحا لفهم فلسفتهم الشعرية؟ وكيف تتحقق المعارف الصوفية من خلال لغة النصوص الشعرية؟

1-2اهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة الى:

- ابراز القيمة المعرفية التي تحتويها دلالات اللغة الشعرية في مجالها الفلسفي التصوفي الاشراقي، حيث سنناقشها في اطار القيم، والمعرفة، والوجود.

-تبيان ان فلسفة الخطاب الشعري عندهم، تقوم على الاعتراض على نمطية صناعة ثقافة السلطة المهيمنة التي يمثلها الفقهاء، وعلماء الكلام، والشعراء، والفلاسفة.

-سنبين للمتلقي كيف انهم يسعون لتحقيق فهم روحي جديد للدين، وللشريعة، وللغة الشعر التي يرقى ناسجها في تمايزها صفة النبي في معتقد العرب منذ القدم.

-سنخلص بذلك إلى أن فلسفة الشعر كخطاب انساني تستمد روحانيتها من لغة القرآن الكريم، وأنهم بذلك يكتسبون صفة التأسيس لخطاب شعري متعالي يتولى تشييد تصور جديد لصفة التلقي تختلف عن أصناف التلقي الأخرى.

1-3منهجية الدراسة:

اعتمدنا في مقالتنا على المنهج التحليلي الوصفي القائم على التحليل اللغوي للحرف، والكلمة، وللمفهوم ثم شرح الفكرة، عن طريق الاستشهاد بنماذج شعرية بإجراء تطبيقات أسلوبية جزئية.

.2.دلالات اللغة

2-1-الجميل

المريد الصوفي في وجوده يبحث عن المعنى الدال على المقدس، ويسعى حثيثا إلى أن يفهم ويفسر كل ما حوله، ويريد أن يمنح كل شيء معناه الجميل، لذلك فصور الجميل عندهم واحد متعدد بتعدد صفاتها عند الخلائق، ترتبط كليا بصور تجلي الجمال الإلهي المطلق في نور قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[4]، ومحكومة بقِيَم الحب الإلهي، لقوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تُحبّون الله فاتّبعوني يُحبِبْكم الله﴾[5].

ارتقى شعراء الصوفية بماهية الجميل أكثر منه بالجانب الحسي للشعر العربي؛ بما أن توصيفه عندهم جاء نتيجة إدراك لغوي حدسي يحمل منظومة قِيَمٍ متجددة في كل زمان ومكان؛ فـ "أهمية الصوفية لا تكمن في مدونتها الاعتقادية، بقدر ما تكمن في الأسلوب الذي سلكته، أو في الطريقة التي نهجتها، لكي تصل إلى هذه المدونة، إنها تكمن في الحقل المعرفي الذي أسست له، وفي الأصول التي تولدت عنه، وهي أصول خاصة ومختلفة للبحث، والكشف. إنها في الفضاء الذي فتحته، وفي كيفية الإفصاح عنه، باللغة، خصوص"[6]، فعملوا على تنمية معنى تجلي الجميل وتأويله بشكل مستمر، بحيث لا يتوقف على حال، أو مقام مكتسب؛ بما أنه يعكس مدى ارتقاء المريد العارف، لذلك يبقى مدار تأويل الجميل عند الشعراء الصوفية يرتكز على: محبة الله، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وصفة بلوغ مقام القطبية، فمن صور تجلي الجميل الأول يقول ابن عربي في ذلك (الطويل)[7]:

جميلٌ ولا يُهوَى جَلِيٌ ولا يرى وتشـــهدهُ الالبـــابُ مـــن حيـــثُ لا تـــدري

ولا تُدركُ الابصارُ منهُ سِوى الذي تنزُهـــــهُ عنـــــهُ العقُـــــولُ ذوي الأمْـــــرِ

فـــإن قُلـــتَ محجـــوبٌ فلسْـــتَ بكـــاذبٍ وإن قُلـــتَ مَشـــهودٌ فـــذلك الـــذي أدرِي

الجميل عند الشعراء الصوفية اثبات، والجلال محو، لقوله تعالى: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾[8]؛ لذلك يرون أنه يجب أن تتأوَلَ لغتهم على أكثر من وجه، من أجل فهم المقاصد الصوفية في محاولتهم وصف الذات الالهية؛ بمعنى أن التأويل يجب أن يأخذ معنى الحضور والغياب لأنه "متى ثبتت الصورة المرئية، ولم يطرأ عليها اختلاف، ولم يعرض لها تحول وتغير، فذلك إدراك حسي، أما إذا تنوعت تكوينات الصورة فذلك إدراك بعين الخيال ، وهو ما يعني أن الله لا يتجلى بصورة واحدة مرتين ، وان كل تجل يعطي خلقاً جديد"[9]، فدليل اللجوء إلى هذا التأويل المتغير، هو قصور اللغة الحسية عن تحقيق المعنى المعبر عنه من طرف الشعراء عقليا أو دينيا؛ لأن "مشاهدة الأبد هو الخروج عن الأزمنة الثلاث، فهم مع ما بين الأزل، والأبد، وذلك فوق الزمان المقدر بالحركة"[10] " ، و من أمثلة ذلك، نجد عفيف الدين يؤول مرتبة كمال النبوة من جهة الحقيقة المحمدية، قائلا (بسيط)"[11]:

اسمعْ مقامًا رسولَ الله يُعطيهِ أقطـــابُ امتِـــهِ، سُـــكّانُ ناديـــهِ

قد أفصَحَت ألسُن الحوالِ فيه لمن أَحَـــلَ أعلـــى المَعَـــالي مـــن معالِيـــهِ

فنـــال صـــلى عليـــه الله مرتَبَـــةً ومثلمـــا قـــال، قلنـــا: فـــي معانِيـــهِ

تجلية الجميل عند الشعراء الصوفية، مصدره ومعياره الحسي، مستلهم من أثر نورانية الرسول صلى الله عليه وسلم –الانسان الكامل المتجلي– على كامل الخلق، بما يمثله من مقام العلو والتفضيل عند الله سبحانه وتعالى، وكرمز لمحبته؛ فـ "الزمان المحمدي الممتد من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، من حيث أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة التشريع فلا نبي بعده (أي المخلوقات) لا

نزال في زمانه وشرعه إلى يوم القيامة"[12]، فكمالية خلق الرسول صلى الله عليه وسلم مثال حسي للجميل للتقرب من معاني الجميل الخالق، من حيث كمال الأخلاق، وصفات الصدق، والدعوة إلى التوحيد، والهجرة بنوعيها المكانية والروحية، ففهم مقاصدهم يبدأ من فهم معنى أبدية زمان الانسان الكامل؛ بمعنى أن الشاعر الصوفي حين يتكلم عن مقام الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يريد أن "يموضع المرئي، والمبصر، في بنية كلية، يصبح فيها حضوره بعدا آخر لغيابه، وغيابه بعدا لحضوره، ويصبح الوجود المرئي لا مرئيا"[13]"، و هناك صورة أخرى عن مركزية الانسان الصوفي–القطب– كرؤيا للجميل نجدها في قول ابن عربي"[14]:

أنا القُرآنُ والسبعُ المثانِي وروحُ الـــــروحِ لا روحُ الأوانِـــــي

وغُصْ في بحرِ الذاتِ تَنظُرْ معـــــاني مـــــا تبـــــدت للعيـــــانِ

وأسراري قراءة مبهمات مســــــترة بـــــأرواح المعـــــانِي

فمن فَهِمَ الاشارةَ فليصنها وإلا ســــــوف يُقتَـــــلِ بالســــــنانِ

كحلاجٍ المحبةِ إذا تبدتْ له شمس الحقيقة بالتدانِي
وقال: انا هُوَ الحقُ الذي لا يغير ذاتَهُ مُرُّ الزمانِ

طريقة تأويل لغة الشعر الصوفية المتعالية، تختلف عن تأويل لغة الشعر الحسية؛ لأنه "من الضروري في الأدب خلق مسافة بين الكلمات والأشياء؛ لأن لصق الكلمات بالأشياء أشبه بمن يلصق وجهه بالمرآة، فلا يعود يرى أي شيء، وإذا ما ألصقنا الكلمات بالواقع أو بالأشياء لا يعود بوسعنا رؤية المرآة ،ولا الوجه ولا الواقع ولا الكلمات، بل إننا نعجز عن رؤية أي شيء ،وعليه فإن الأدب الحقيقي إنما

هو كشف واستبصار ؛لذلك فتأويل معاني الشعر العرفاني، الذي يتناول فكرة الحلول يجب أن تؤخذ على تصور أشكال المعاني، لا على مقاصدها الحسية، لأن هذا النوع من الشعر يُتَأَوَّل "بلغته لا بفكريته، إذ لو كان يحدّد بفكريته –لما كانت هناك حاجة إلى نشوء لغة خاصة– شعرية"[15]؛ بمعنى أن الشاعر الصوفي أذا وظف أشكالا لغوية، وصورا غير حسية للتعبير عن لا منطقية حدوث الفعل، فهذا راجع بالضرورة لوظيفة الشعر أساسا، من حيث أنه يثير في النفوس أنواع المشاعر الصادقة الخيرة، فيحملهاعلى الالتذاذ بالحب، وبالفضيلة.

2-2-العرفان

اللغة عند الصوفي خلق قدسي موجود مع الانسانتكتسي أبعادا وجودية؛ لأنها ليست مجرد وسيلة للتعبير عن فكر أو للتواصل، فـ"كلما أصغى الإنسان إلى اللغة، مستطلعا معانيها ومستشرفا آفاقها، تهيأ له، من غير أن يتخلى عن وضعية الإصغاء، تهيأ له أن يتصل بالكينونة الحقة التي تقوم على أصلها جميع الموجودات"[16]"، لذلك جاءت لغتهم إشارية، رمزية مجازية، مفتوحة على كل آفاق التأويل، وهذا ما يجعل من عملية تأويل نصوصها الشعرية مفتوحة الدلالات دائما، لا تنتهي عند حدودتعريف الأشياء، فهي لغة تَعْبُر ولا تُعَبِرْ .يقول الحلاج(البسيط)"[17]:

شيء بقلبي وفيه منك أسماء لا النور يدري به كلا ولا الظُّلَمُ

فخذ حديثي حبّي أنت تعلمه لا اللوح يعلمه كلا ولا القلمُ

أولى عتبات تأويل النصوص الشعرية الصوفية لغويا، تبدأ من طريقة اختيار الشاعر حروف الروي، التي تعد مصدرا من مصادر المعرفة التعبدية، التي تمهد لحصول المعنى الظاهر والباطن، ذلك "أن الحروف أمة من الأمم مخاطبون

ومكلفون وفيهم الرسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقنا، وعالم الحروف أفصح العالم لسانا، وأوضحه بيانا، وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف في العرف فمنهم: عالم الجبروت...،ومنهم العالم الأعلى..، ومنهم العالم الوسط...،ومنهم العالم الأسفل، وهو عالم الملك و الشهادة ..، ولكل عالم رسول من جنسهم، ولهم شريعة تعبدوا لها..، وفيهم عامة، وخاصة، و خاصة الخاصة، وصفا خلاصة خاصة الخاصة"[18]" يقول ابن عربي (الكامل)"[19]:

نُونُ الوجودِ تدلُ نقطة ذاتها فـــي عينهـــا عينـــا علـــى معبودِهـــا

فوُجودُها من جودِهِ ويمينِهِ وجميـــع أكـــوان العُـــلا مـــن جودِهَـــا

أنظـــر بعينـــك نصـــفَ عَـــين وجودِهَـــا مـــن جودهـــا تعثُـــرْ علـــى قُقُودِهَـــا

الحروف عند الصوفية دوالٌ تعادل في مراميها الدلالية كل ما سوى الحقِّ تعالى من موجودات، لذلك فتأويل صورها هو تجلي لنسق فكري، وظهور للحق مع عدم تكراره، تتحقق لها المرتبة الدالة على تحقق الوجودية؛ لأنها "تجمع بين الوجود الظاهر،مجسدا في الحرف مرسوما ومخطوطا، والوجود الباطن أيروح الحرف، فهو عنده مكائن جسده شكله، وروحه معرفة لا يظفر بها إلا العارفون وأهل الذوق"[20]، وهذا معناه أن الحرف كشكل صوري لا يصبح دالا إلا بمدلوله الروحي فهو"حقيقة منظورة تخفي حقيقة مستترة"[21]

تجلية معاني الحرف، ثم الكلمة ، ثم الجملة في النص الشعري الصوفي، يتطلب بذل جهد كبير يفصل فيه بين المفهوم، والمصطلح، والمعنى، والدلالة، وفهم طريقة اشتقاقاتهم اللغوية في بناء مقاصد معانيهم اللفظية والمجازية؛ بسبب تباين

رؤياهم الشعرية؛ ذلك "أن الفارق بين الرؤيا الشعرية والرؤيا الصوفية هو في درجة تسامي كل منهما ، فبينما يفترض بالتجربة الصوفية بلوغ حال الفناء في العالم والامتزاج فيه ، بحيث تتوحد كل تناقضاته ، ويغدو شيئاً شفافاً خالياً من الإعتكار والصراع ، قد لا يفترض في التجربة الشعرية بلوغ هذا المدى في جميع الأحيان إلا عند القليل من الشعراء ففي حالات من الصفاء، والشفافية، تقترب رؤى بعض الشعراء من رؤى الصوفية فتجيء أشعارهم كشطحات الصوفية جانحة إلى الإيماء والرمز والغموض واللامعقول"[22]، وهنا نستشهد بأبيات شعرية لإبن عربي تعكس تجليات جمالية في استخدامات الفعل "رأى" حيث يقول:[23]:

يَـــــــامَنْ يَرانِـــــــي ولا اراه   كـــــــــم ذا أراه ولا يرانـــــــــي

الفعل **(أراه)** لا يقصد به الرؤية البصرية، ولكنه بمعنى (يجد)، فالعبد يجد ربه منعما ولا يجده ربه "شاكرا" لفضله، أو "لائذا" به، واستخدام الفعل "رأى" بمعنى "وجد" شائع ومضطرد في اللغة العربية.

تعمل الشعرية الصوفية في اشتغالها على الكلمة في حد ذاتها، ثم داخل بناء النص على تقويض القوانين الشعرية التي يشتغل بموجبها الكلام المنطقي، وهي في طريقة تفكيكها لبنية الكلام الشعري، فإنها تطرح قوانينها الذوقية الجديدة، لتؤسس للغة المنطق الخاص بهم، فـ "الكلمة في الشعر لا تحمل معنى وكفى، وإنما هي تثير معاني الكلمات التي ترتبط بها ارتباطا صوتيا أو اشتقاقيا أيضا"[24]، وبذلك تنتقل اللغة الشعرية من الوظيفة الانسانية القائمة على الوضوح في بناء المقاصد إلى الوظيفة العرفانية القائمة على الالتباس والتمويه الدلالي، لأنه إذا كان" الإبداع تجاوزا، فهو يتضمن اختيارا، لأن من يبدع يتخلى عن شيء ليتبنى آخر غيره، لكن

هذا التخلي لا يعني الرفض بقدر ما يعني البحث عن قبول جديد، فالرفض هنا، مرتبط بالقبول: إنهما وجهان لحقيقة واحدة،"[25].

3-دلالات المعنى

3-1التجلي

الصوفي حين تخذله معاني الكلمات المجردة، يبحث عن لغة تجلي مناسبة لمقاصد تجربته الروحانية؛ لأن حقيقة التجربة عندهم أثمن من اللغة ذاتها، فالمعرفة الجمالية لحقيقة الموجودات و صفاتها الجمالية، ليست نتاجا للوعي، بل لها وجود حسي موضوعي سابق عنه يصلُه المريد عن طريقِ توظيف بعض خصائصه الطبيعية، فالتجلي في مفاهيم شعراء الصوفية عدم في حد ذاته؛ لأنها يقوم على ثنائية الحضور والغياب، ولا ينتمي لنفس العالم الروحي للشاعر الذي يربط كل الأحداث والوقائع بالغيبيات، وهو في حالة متطورة غير ثابتة، فـ "متى ثبتت الصورة المرئية ولم يطرأ عليها اختلاف، ولم يعرض لها تحول وتغير، فذلك إدراك حسي.

أما إذا تنوعت تكوينات الصورة فذلك إدراك بعين الخيال ، وهو ما يعني أن الله لا يتجلى بصورة واحدة مرتين ، وان كل تجل يعطي خلقاً جديدا"[26]"، لذلك يعد التأويل اللغوي للتجلي الصوري عند المتصوفة بابا للمعرفة، لأن وجود المحدثات هو عين وجود الخالق، والشاعر يريد أن "يموضع المرئي ، والمبصر ، في بنية كلية ، يصبح فيها حضوره بعدا آخر لغيابه ، وغيابه بعدا لحضوره ، ويصبح الوجود المرئي لا مرئيا"[27]"،ويكون الأمر أكثر وضوحا إذا اقترن برمز المرأة التي تعد عندهم خليطا من المادة، و شيئا من الصفات المتعالية ، لأنها "تتكشف بوصفها تجسدا للحب الإلهي الذي يحيل إلى تجلي العلو في الصورة الفيزيائية المحسة، وشفرة استيطيقية توحي بانسجام الروحي والمادي، والمطلق والمقيد في الأشكال المتعينة، فلجوؤهم

للمرأة هو بحث عن مقياس للتجلي يستطيع ان يحدد به الافكار التي ترد عليه، يقول ابن الفارض في ديوانه[28]:

أبـــرق، بـــدا مـــن جانـــب الغـــور لامـــع أم ارتفعـــت عـــن وجـــه ليلـــى البراقـــع

أنـــا الغضـــا ضـــاءت، وســـلمى بـــذي الغضـــا أم ابتســـمت عمـــا حكتـــه المـــدامع

أنشـــر خزامـــى فـــاح،أم عـــرف حـــاجر بـــأم القـــرى، أم عطـــر عـــزة ضـــائع

ألا ليـــت شـــعري: هـــل ســـليمى مقيمـــة بـــوادي الحمـــى، حيـــث المتـــيم والـــع

اللجوء إلى تمثل أسماء الأنثى كأسلوب شعري مرده أنه "لم ينشأ التركيب الثيوصوفي لرمز الأنثى في شعر الصوفية من فراغ خالص ذلك أننا نجد لهذا الرمز الذي بدا ذا طابع غنوصي، جذورا بعيدة تتصل بأصول ميثولوجية قديمة، وبإرهاصات الغزل العذري الذي نسجت حوله أخبار وحكايات وأشعار تناقلها الرواة حتى ذاعت في بعض العواصم الإسلامية"[29]"، لذلك فالتصوير الجمالي للمسميات الأنثوية بمفهوم الشعراء الصوفية لا يقاس عيانا، أو منحوتا جمادا، أو بحسب كثرة ألوان الصورة، وإنما بمرتبتِها، وما من جميل في الوجود عندهم إلا وَلَهُ مرتبة تشتق بالضرورة من صفات أسماء الله تعالى، وجمال صورة المرأة عندهم هو مرتبة شهود حقائقُهم التصوفية، التي يتخللها انبساط وانقباض؛ لأن "التركيب الغنوصي للمرأة عند الصوفية تدل على أن معرفة الله عندهم قد بدت مشوبة بطابع وجداني عاطفي مشبوب"[30]"،فهي اسقاط في جوهرها لمَشهَدُ الذوات في تعيُّنِها دون إدراك أو تمثيل حسي لأسرارها ولمعانيها، بما أن "مشاهدة الأبد هو الخروج عن الأزمنة الثلاث، فهم مع ما بين الأزل والأبد وذلك فوق الزمان المقدر بالحركة"[31]"، ولعل ما يفتح لنا باب التأويل واسعا على مقاصد الصورة الصوفية، هو أن "الصوفية المسلمين، أسقطوا

رمزية الجوهر الأنثوي على بعض الحقائق اللغوية الخاصة بصيغ التأنيث في العربية، والحق أن هذا الإسقاط للرمز يكشف عن طابع فلولوجي صوفي لا يخلو من الاستبطان لحقائق اللغة، وبخاصة الأبنية اللفظية المؤنثة التي حللها الصوفية بردها إلى تصور قبلي شامل"[32].

3-2-المقاصد

صناعة مقاصد اللغة الصوفية تكتمل وجهة معانيها في القلب قبل أن توظف في التفكير، والتعبير، وتمييز الأشكال، والمفاهيم؛ لأن "ما يجمع بين التصوف والشعر، أنهما يؤسسان وحدة ينصهر فيها الفكر والشعور، ويتضامن في نسيج متلاحم، بحيث يؤول الشعر إلى فكر، وينقلب الفكر إلى شعر"[33] ،فلهذه اللغة فلسفتها ومنطقها، حيث لا مكان للتناقض بين مسمياتها؛ لأن مبدأهم في وضع الأسماء وتصنيف الأشياء، هو الإشارة إلى ما به اتحاد بين الأشياء، ولو كثر ما بينهما من الاختلاف؛ ف"العلاقة بين العبارة والإشارة، هي العلاقة بين الظاهر والباطن، فظاهر العبارة هو ما تدل عليه من حيث وضعية اللغة، والإشارة من حيث هي لغة إلهية، وإذا كان أهل الظاهر يتوقفون عند العبارات ومعانيها التي تعطيها قوة اللغة الوضعية، فإن العارفين ينفذون إلى ما تشير إليه العبارة من معان وجودية وإلهية"[34]، فشاعرية معاني لغة الصوفية فعل واع، وذوق راق، بما يطبعونه عليها من إشارات، من أجل توليد شبكات جديدة من المعاني، تتميز بها شعريتهم، وترتسم حدود مكتسباتهم العرفانية للمتلقي المريد؛ فالشعر الصوفي شعر ميتافيزيقي، لا يمكن تأويله أو الحكم على معانيه بمنأى عن سياق التجربة الصوفية القائمة على ثنائية العاشق والمعشوق، أو الحب الإلهي، الذي تبرز معاني التضاد الواضح بين الحضور المادي وهو الجسد، والغياب النوراني وهي

الصفة الدالة على الذات الله عز وجل، ذلك "أن الشعر الميتافيزيقي تجربة شخصية يفجرها الشاعر في حدوس، ورؤى، وصور، فالشاعر الميتافيزيقي، لا يعنى بالأفكار إلا من حيث انعكاسها وانصهارها في نفسه ، فالشعر، هنا ، استبطان للعالم، وجهد للقبض عليه دون حلّ، أو جزم، أو تحديد، وخارج كل نسق، أو نظام عقلاني منطقي"[35]، ومن صور تحقق مقاصد المعنى ما يقوله العفيف(طويل)"[36]:

وقفنـــا علـــى المغنـــى قـــديما، فمـــا أغنـــى وما دلت الألف منه على المعنى

قـــديم بـــه أمســـينا، وتبنـــا بربعـــه حيـارى، واصـبحنا حيـارى كمـا تبنـا

ثملنـــا وملنـــا والـــدموع مـــدامنا ولـــولا التصـــابي لا ثملنـــا ولا ملنـــا

لغة الخطاب الشعري الصوفي في هذه الأبيات تستمد قوة معانيها من مركزية اختلاف تأويلهم للنص الديني، بما أن نظرتهم الصوفية لمفهوم الجمال كانت أكثر حرية، واطلاقا من علماء الشريعة الإسلامية، و هذا شأن بائن بين اللغة الدينية الشرعية واللغة الصوفية، إذ "الأولى تقول الأشياء كما هي بشكل كامل نهائي، والثانية لا تقول إلا صورا منها فهي تجليات المطلق، تجليات لما لا يقال ولما لا يوصف، وما لا ينتهي لا يعبر عنه إلا بما لا ينتهي والكلام منتهٍ... فالأولى في جوهرها لغة فهم، والثانية لغة حب تحب الأشياء دون أن تفهمها، بينما علاقة الثانية مع الأشياء والكون علاقة إدراك وتأويل لا علاقة حب، والحب لا يقاس بل يعاش،

تقال صور منه، ولكنه كمثل المطلق عصي على القول"[37]"، وهذا ما أضفى القداسة على اتساع معانيهم.

خاتمة

تتأسّس فلسفة النصوص الشعرية الصوفية على تأويل كل مبادئ الدين، ومقولاته، وتتوسع في مسائل الشريعة، ومسائل التفكير والتدبير، وبسبب هذا واجهت شعراء المتصوفة في محاولتهم التعبير عن إشراقاتهم الفيضية معضلة عجز اللغة في زمنها المكاني؛ لأن أكثر دلالات الألفاظ حسية، واللفظ الواحد لا يمكن تحميله كل الدلالات المتباينة،لذلك:

-انتقلوا بها إلى معاني مفتوحة جعلتها تتجاوز كل العصور، وتخاطب كل الأزمنة، وتتجدد معانيها في كل قراءة تأويلية لغوية تحاول أن تفككه، أو تعيد تركيبه، فهي تخاطب الروح التي تتعدد بتعدد الخلائق.

-غيروا من أساليبها وطرائق تعبيرها وتجلياتها الصورية، فجعلوا نصوصها مستقلة في مقاصدها عن عامة الشعر العربي من خلال تفجير الطاقات الدلالية للغة.

-فلسفة تمثيل المقدس تختلف من شاعر صوفي إلى آخر باختلاف عدد أنفاسهم، وأسباب هذه المتغيرات تعود لطبيعة النظام المعرفي الصوفي، الذي يسوغ لمفهوم الاختلاف في الفهم الديني للجميل والجليل، بدلالة اختلاف الأحوال والمقامات وصفات تداخلهما.

-متلقي لغة الشعر الصوفي عند أعلامه الكبار، سيدرك أن هناك رؤية فلسفية جمالية بالغة الشفافية مشتركة، تجمعهم على اختلاف تصوراتهم، وآرائهم، وتصدر عن مسائل تتعلق بالإيمان العميق في تصورهم للجمال المطلق.

المراجع:

[1]ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990 ص: 52

[2]ابن عربي محي الدين، الخيال عالم البرزخ والخيال، تح: محمود محمود الغراب، مكتبة نضر، القاهرة،ط2 ، 1993، ص:9

[3]أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها، دار قباء، مصر،1998،ص:100

[4]سورة الشورى، الآية:11

[5]سورة آل عمران، الآية :31

[6]أدونيس، علي احمد سعيد، الصوفية والسريالية، دار الساقي، بيروت،ط3، 1995، ص25

[7]ابن عربي محي الدين، الفتوحات المكية،ج4،تح:أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1999، ص:256

[8]سورة البقرة، الآية :115

[9]عاطف جودة نصر، الخيال مفهوماته ووظائفه، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1984، ص:117

[10]التلمساني عفيف الدين، شرح مواقف النفري، تح: جمال المرزوقي، مدينة نصر،مصر،1995، ص:433

[11]التلمساني عفيف الدين،الديوان، تح: العربي دحو ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1994،ص:255

[12]سعاد الحكيم، المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة،دندرة، بيروت،1981،ص: 549

[13]كمال أبوديب، في الشعرية ، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان،ط1، 1987م، ص: 108

[14]ابن عربي، الفتوحات المكية،ج1، ص: 24

[15]أدونيس، صدمة الحداثة، الثابت والمتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت ،ط4، 1983، ص: 260

[16]مشير باسيل عون، الفسارة الفلسفية، بحث في تاريخ علم التفسير الفلسفي الغربي، دار المشرق،بيروت،ط1، 2004، ص:127

[17]الحلاج الحسين بن منصور، الاعمال الكاملة،ديوان الحلاج، مكتبة الاسكندرية، مصر،2002 ص:320

[18]سعاد الحكيم، المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة، ص:76

[19]ابن عربي، الفتوحات المكية،ج1،تح:عثمان يحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مصر،ط2، 1985،ص: 112

[20]محمدبن عمارة، الأثرالصوفيفيالشعرالعربيالمعاصر، مطبعة المدارس، المغرب، ط1، 2001م،ص:51

[21]المرجع نفسه،ص:52

[22]عدنان الحسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1979، ص ص:30، 31

[23]ينظر: أحمد بن محمد المقريالتلمساني، نفح الطيب،ج2،تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت،1997، ص:168

[24]ينظر: Welleh ; Rene/ Warren ; Austin ; Theory of Literature ; Penguin Books ; Great Britain (1982)P.175.

[25]أدونيس علي احمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص:103.

[26]عاطف جودة نصر،الخيال مفهوماته ووظائفه، ص:117

[27]كمال أبوديب، في الشعرية ،ص: 108

[28]ابن الفارض شرف الدين عمر بن علي، الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص:166

[29]عاطفجودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص138

[30]المرجع نفسه، ص153

[31]التلمساني عفيف الدين، شرح مواقف النفري، تح: جمال المرزوقي، مدينة نصر،مصر،1995، ص:433

[32]عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص: 153

[33]عاطف جودة نصر، *تراث الادب الصوفي* مجلة فصول للنقد الادبي، مج1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980، ص:107

[34]نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل– دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي،

دار الوحدة ، بيروت، ط1، 1983، ص: 268

[35]أدونيس علي احمد سعيد، زمن الشعر، دار الفكر ،لبنان، ط5، 1986، ، ص ص: 174،175

[36]التلمساني عفيف الدين، الديوان، ص:233

[37]أدونيس احمد علي سعيد، الصوفية والسوريالية ،ص ص: 23 ،24